وحـــدة الوجـــود

بين الفلسفة والدين

للأستاذ محمد يوسف موسى

تناول فى هذه الأيام الأخيرة مذهب وحدة الوجود بعض كتاب الرسالة وقرائها الناهين الأفاضل ، بمناسبة « رسائل التعليقات للرصافى » ونقدها الأستاذ دريني خشبة ، وكلٌّ عرض لهذا المذهب من الناحية التى يراها جديرة بالاهتمام . وقد رأى أحدهم ، وهو الأستاذ زكريا ابراهيم المعروف باصطناع الدقة فى التعبير والحكم ، أن من التعسف والخطأ والمجازفة أن يقال عن هذا المذهب إنه إفك ينطوى على كثير من الأراجيف وإنه لا يتفق وعقائد الدين الحقة

لذلك أرجو أن يكون لى التقدم بهذه الكلمة ؛ لعلها تكشف بعض الحقيقة ، أو تساعد على الوصول إليها

* * *

الذهاب إلى فكرة « وحدة الوجود » ليس إلا أحد الحلول أو الأفهام التى حاول بها المفكرون والفلاسفة فى القديم والحديث أن يحلوا أو يفهموا مسألة صلة الله بالعالم ، وقد أنتج التفكير فى هذه المسألة كثيراً من المذاهب التى وعاها الزمن وسجلها تاريخ الفلسفة

ومحيى الدين بن عربى من زعماء القائلين بهذه الفكرة ، وكان له من أجل ذلك أنصار وخصوم ؛ هؤلاء يقذفونه بالزندقة والكفر ، وأولئك يجعلونه الشيخ الأكبر وأحد أولياء الله وأصفيائه ، ولكل أمارات ودلائل ، ولا يتسع المقام لذكر ذلك أو الإشارة إليه . إلا أنى أشير إلى أن عبد الوهاب الشعرانى ، وهو من أكبر أنصار الشيخ ، حاول أن يوفق بين الشريعة وبين ما ورد فى مؤلفات الشيخ مما لا يتفق والدين ، فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فلجأ أخيراً إلى حذف ما لا يتفق وما عليه أهل السنة والجماعة من كتاب الفتوحات ، كما يروى ذلك بنفسه فى مختصره لهذا الكتاب ، وتلك لعمرى خطة إثمها أكبر من نفعها !

ولكن ، ما معنى هذه الفكرة « وحدة الوجود » التى تؤدى إلى التكفير فى رأى كثير من الناس ؟ هى ، كما يتبين من كتب ابن عربى نفسها ، القول بأنه ليس هناك إلا وجود واحد هو الله والعالم كله مظاهر له ، أو بعبارة أخرى ليس جميع الممكنات إلا مظاهر للحق (الله) يتجلى فيها ولولاه لكانت عدما[1]

ومعنى هذا أن الحقيقة التى هى الوجود الحق هى ذاته تعالى : وهى فى عالم الحيوان حيوان ، وفى عالم النبات نبات ، وفى عالم الجماد جماد ؛ فالله منبث فى كل شىء من سماء وأرض وشجر وحيوان ، وما إلى ذلك كله مما خلق حتى عجل بنى إسرائيل هو بعض مجالى الله ومظاهره ، ولهذا صح لموسى عليه السلام أن يقول للسامرى : « وانظر إلى إلهك » ![2]

هكذا يقول ابن عربى ويتناسى تتمة الآية : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنّه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً » مما يدل دلالة واضحة لا تحتمل الجدل والمكابرة على ما فى خطاب موسى عليه السلام للسامرى من تهكم به وبما صنع !

وليست هذه النصوص متفردة فى مؤلفات ابن عربى ، إنها مليئة بكثير أمثالها الدالة على هذه النظرية الغامضة الصعبة التصور والعسيرة الفهم ، والبعيدة عن العقل والدين فيما أرى ، ويرى كثير غيرى إنها لا تتفق مع الدين الذى يرى وجود موجودين — الله والعالم — متباينين فى كل شىء ومنفصلين تمام الانفصال ، أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر ، ولا تتفق كذلك معه بحال ما ، ما دام الدين ينزه الله عن أن يكون أشرف مخلوقاته مجلى ومظهراً له ، فكيف بعجل بنى إسرائيل وما دونه

ولا تتفق كذلك مع العقل الذى يرفض أن يؤمن بشىء يعجز عن إدراكه على أى نحو كان ، كما أنه لا يرى ضرورة للإيمان بها فى سبيل فهمه الله والعالم والعلاقة بينهما

ولعل رفض العقل والشرع لفكرة وحدة الوجود هو الذى جعل بعض المفتونين بابن عربى يبرئونه من القول بها أو الذهاب إليها ؛ أمثال السراج البلقينى والسيوطى والشعرانى وعبد الغنى النابلسى[3] ، ولكن كيف يمكن هذا ، والفتوحات والفصوص قائما على هذا المذهب ولا يستطاع تأويلهما جميعاً !

قد يقبل الإغماض فى عبارة يجرى بها لسان صوفى أخذه الوجد ، وارتفع به الحال ، وشاهد ما لا نشاهد ، فقال فى لحظة من لحظات التجلى والمشاهدة : أنا الحق — مثلاً ! — ولكن ليس من المقبول الإغماض فى نظرية قام عليها مذهب ، وامتلأت بها كتب ، وسجلها صاحبها وهو هادئ النفس يحس بما يقول ويقدره قبل أن ينطق به !

(١) الفتوحات جـ ٢ : ٢١٥ — ٢١٦ (٢) شرح الفصوص ص ٢٣٦ وما بعدها (٣) كتابى : فلسفة الأخلاق فى الاسلام وصلاتها بالفلسفة الأغريقية ص ١٩٦